فجر التاريخ في شمال إفريقيا

ان الدارس المتتبع لمسيرة الحضارة البشرية، وبعد دراسته لعصور ما قبل التاريخ و التطور الحضاري الذي مر به الفكر البشري من حضارات العصر الحجري القديم فالعصر الحجري الاوسط وصولا الى العصر الحجري الحديث ، لكن بعد هذا التتبع يجد الدارس نفسه عند الخروج من دراسته لعصور ما قبل التاريخ امام مجال جديد للبحث والدراسة هو مجال فجر التاريخ والذي يعتبر مرحلة انتقالية مهمة اذ انها تفصل وتوصل في آن واحد بين البحوث ما قبل التاريخية و التاريخية ،كما انه مرحلة تضع حدا لعصور طويلة تعاقبت فيها تقلبات مناخية عالمية كان لها تأثيرها على سير الحضارة بصفة عامة ، اما بالنسبة لفترة فجر التاريخ في شمال افريقيا فيشكل موضوع جدال كبير بين الباحثين و تكمن صعوبته في تعيين الحدود الكرونولوجية.

1/ تعريف فجر التاريخ

لقد اهتم الكثير من المختصين ابتداء من القرن العشرين بتوضيح مفهوم فجر التاريخ، و بما انه من الضروري تحديد فترة فجر التاريخ في اطاريه الزمني و الثقافي يجب علينا تسليط الضوء على بعض التعريفات و التوضيحات لفجر التاريخ التي اهتم بها بعض الباحثين، و لقد تضارب مصطلح فجر التاريخ في مقاييس مفهومه، لكن مصدر هذه التسمية فرنسي، حيث يطلق من طرف الباحثين الاوربيين بصفة عامة على فترة تاريخ البشرية المحصورة ما بين فترة ما قبل التاريخ التي تسبقها و العصور التاريخية التي تليها ، وتسمى مرحلة فجر التاريخ بأسماء مختلفة حسب المدارس، فقد اطلق الغربيون عليها في الشرق الادنى مثلا : مصطلح ما قبيل الأسرات، كما اطلق عليها ايضا مصطلح ما قبيل التاريخ، اما الالمان و الفرنسيون فأطلقوا مصطلح فجر التاريخ وهو المصطلح الذي تفضل استعماله.

وتجدر الاشارة في هذا الشأن الى أن هناك عدة تعريفات توضح تضارب كبير في تحديد مفهوم فجر التاريخ ، وقد تنفرد هذه الفترة بطابع خاص بسبب الاختلافات الكبيرة ما بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية القديمة ، ومن اهم التعريفات التي وردت في المراجع المتخصصة في الاثار نذكر :

الموسوعة الكونية العالمية : "هو العلم الذي يجمع بين معارف السكان عديمي المعرفة بالكتابة ويكونون معاصرين لأولى الحضارات التاريخية، فبالنسبة لأوروبا كانت تتعلق أساسا بالألفيتين قبل المسيح الموافق لعصر المعادن أي الفترة التي يغطيها تلي عصر ما قبل التاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة، ففجر التاريخ ليست مجرد فترة انتقالية ما بين ما قبل التاريخ والتاريخ فحسب، ولكن بمثابة مرحلة التطور الانساني الذي شهد على وجه الخصوص اكتشاف وتطوير

المعادن من نحاس وبرونز وحديد، بالإضافة الى ظهور مختلف الجوانب الاقتصادية كالتجارة بالمعادن والادوات المصنعة، والدين كعبادة الشمس وحرق اجساد الموتى".

اما تعريف **جوزيف ديشلات** Dechelette لفترة فجر التاريخ بأوروبا فيعتبرها :"مرحلة انتقالية أو فاصل ما بين ما قبل التاريخ والتاريخ بما يتناسب مع عصري البرونز والحديد، وزمنيا مع الالفيتين الاخيرتين قبل الميلاد"، ويجدر الذكر على ان ديشلات يعد اول باحث عرف هذه الفترة.

اما **جان بيار ميلوت** : حدد في سنة 1970 فترة فجر التاريخ في مجالها الاوربي بمثابة مجموع عصر المعادن (النحاس ، البرونز ، الحديد)

2/ خصائص فجر التاريخ

- يعتبر مرحلة انتقال الانسان من عصور ما قبل التاريخ الى العصور التاريخية .
- تميز بظهور المعادن كالنحاس والبرونز والحديد
- انتقال نمط حياة السكان في الانتاج من مرحلة الاكتفاء الذاتي الى مرحلة تقسيم العمل.
- تطور الديانة و الايمان بالحياة بعد الموت و دليل ذلك المعالم الجنائزية و التي و جدت فيها مرافق وادوات الموتى.
- تنظيم الحياة الاجتماعية (العيش في تجمعات كبيرة ومنظمة) والاقتصادية (استخدام الفخار والادوات المعدنية).
- توسع التجارة والاتصالات الثقافية بين السكان.

3/ فجر التاريخ في شمال افريقيا

3-1/ اشكالية تحديد فجر التاريخ زمنيا

تعتبر فترة فجر التاريخ في شمال افريقيا من بين المراحل الصعبة في تحديدها الكرونولوجي، وقد ترتب عن ذلك جدال كبير بين الباحثين وتضاربت الآراء حول مفهوم هذه الفترة وتحديد بدايتها و نهايتها ويظهر هذا جليا في الدراسات التي اعدها استيفان قزيل Gsell ما بين سنتي 1901 و 1929 ، واعمال ريغاس Reygasse فيما بعد في سنة 1950 ، ثم ابحاث كامبس Camps في سنة 1961 ، وغيرهم من الباحثين الذين اهتموا بهذه الفترة، ولقد انصبت معارف ومعطيات هؤلاء الباحثين الخاصة بهذه المرحلة الانتقالية في دراسة المعالم الجنائزية المختلفة الانواع

وطرق الدفن ودراسة أهم مرفقاتها الجنائزية ، ورغم كل ما استخلص من نتائج وتأويلات واستنتاجات عن هذه الفترة الا انها تبقى مبهمة وغامضة في الكثير من جوانبها العلمية والتأريخية منها على وجه الخصوص، وتجدر الاشارة في هذا الشأن ان هناك عدة تعريفات توضح تضارب كبير في تحديد مفهوم فترة فجر التاريخ، حيث استعمل ريغاس مصطلح "أسبق" او "ما قبل الإسلام" بدلا من فجـــــر التاريخ ، لكن ماذا يقصد به ؟ ، يعني هذا المفهوم ببســـاطة سابق لظهور الإســـلام، أما ليونال بالو Balout فيعرفه ســـنة 1955 بأنه :" المدخل أو الحجرة الخلفية للتاريخ، لكنه يعكس حالة معارف ضيقة المفهوم في جوانبها المختلفة أكثر ما يحدد بفترة زمنية".

ولكن هذا المفهوم له معنى محدد وغير معرف، فالمقصـــود ان كل معلم جنائزي بصـــفة عامة كان يعتبر لاحقا للعصر الحجري وسابقا للإسلام. بينما يشير الباحث سينتاز Cintas انه في غياب النصوص يمكن اعتبار المراحل البونية منتسبة اكثر الى فترة فجر التاريخ منها الى التاريخ ، و يجب الاشارة بأن هذا الاستنتاج انتقده كامبس و اعتبر عمله غير علمي وغير مقنع من حيث الاســـتنتاجات العلمية ، و يوضـــح كامبس من جهته فترة فجر التاريخ لبلاد المغرب (شمال افريقيا) انها تنفرد بطابع و مميزات خاصـــة بســـبب الاختلافات الكبيرة ما بين عصـــور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية ، ويعرفها كدراسة للأصول البربرية وشكلا لعلم الاثار الريفي، وفيما يخص علم الاثار الريفي فيعرفه كامبس على انه موضـوع معاصـر او سـابق او لاحق لحضـارة تاريخية ما، و يضـيف انه لا يعرف الكثير عن حياة السكان المحليين من الجانبين الاجتماعي و الاقتصادي قبل وبداية العهد الروماني ، و يمضي موضحا انه لا يستبعد القول لكون الابحاث في فجر التاريخ ســـبقت البحث عن ما قبل التاريخ ، لكنها لم تحظ بالاهتمام اللازم ، لذا فقد ظل فجر التاريخ غامضـــا في حلقاته المختلفة نظرا لغياب الاختصـــاصـــيين بالدرجة الاولى و مناهج البحث الملائمة والنقص الكبير للحفريات

ونظرا للمعطيات والنتائج الاثرية التي تمت ببلاد المغرب عامة والجزائر خاصـــة يعرف كامبس فترة فجر التاريخ بمرحلة المعادن و هي متزامنة مع العهد البوني و تشكل هذه الفترة بالنسبة اليه عالم البربر القديم اعتمادا على دراسته للفخار، وفي موضـع آخر يرى أن فترة فجر التاريخ في بلاد المغرب تنفرد بطابع ومميزات خاصـة بسـبب الاختلافات الكبيرة ما بين عصـور ما قبل التاريخ والعصـور التاريخية، ويعرفها كدراسـة للأصـول البربرية وشـكلا لعلم الآثار الريفي، ومن أهم التعريفات الأكثر وضـــوحا ما ذكره بريار Braird بأن فجر التاريخ علم يشـــمل مجموعة معارف حول الشعوب التي لم تعرف الكتابة والتي زامنت الحضارات التاريخية الأولى، فهي مرحلة عادية لانتقال الانسان من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية حيث عرف فيها صناعة المعادن.

ولقد اتفق المختصـــون ان بداية فجر التاريخ تأتي مع انتهاء عصـــور ما قبل التاريخ ونهايته مع ظهور الوثيقة المدونة لكن تبقى بدايته غير واضـــحة ومدققة و ذلك راجع لنقص الدلائل الاثرية والمعطيات التاريخية ، وبالرغم من ذلك يذهب البعض الى تحديد بداية فجر التاريخ الى حدود 3000 سـنة قبل الميلاد بالنسـبة لبلاد المغرب، ويرى الاسـتاذ محمد خير اورفلي ان بلدان شمال افريقيا بدأت تدخل مرحلة فجر التاريخ منذ النصـــف الثاني من الالف الثانية ق.م ، في حين يذكر عبد الطيف محمود البرغوثي بأنه بدأ مع عصـر المعادن في مناطق حوض البحر خلال الالف الثانية قبل الميلاد ، ولكنه بقي في افريقيا مقصـورا على المناطق الواقعة شمال الصـحراء الكبرى و لم يتجاوزها الى الجنوب ، وتبقى نهايته غامضـــة هي الاخرى حيث يرجعها بعض المختصـــين الى ظهور الوثيقة المدونة و التي تعود الى حوالي 1500 سنة قبل الميلاد.

و يرجعها البعض الاخر الى الدخول الفينيقي و تأسيسـهم لأولى المسـتوطنات مثل اوتيكا سـنة 1100 سـنة قبل الميلاد ، حيث يذكر قزيل Gsell بأن الفينيقيين بالتأكيد قد كان لهم ضـلع كبير في نمو الحضـارة بشـمال افريقيا، ومع ذلك فيجب ألا نبالغ في ذلك كثيرا ، لكن يمكن القول بان التواجد الفينيقي يكون بالنســـبة لشـــمال افريقيا بداية العصـور التاريخية و بالتحديد بعد تأسـيس اوتيكا سـنة 1101 قبل الميلاد ، و يذكر قابريال كامبس بأن سـكان او شعوب ما قبل التاريخ اي قبل الاسلام او عصر الحضارة الريفية البربرية بأنه لا تملك اركيولوجيا فجر التاريخ في افريقيا الشـمالية سوى مصـدر واحد للمعرفة وهو مصـدر لا يتضـمن في الواقع غير بعض الاضـاءات الهزيلة والتي لا تزال محل نقاش لا شـــيء يؤكده و هذا المصـــدر هو نتائج الحفريات التي اجريت في المعالم الجنائزية اي انه منذ الانطلاقة في الابحاث لا نجد سـوى وقائع غير مؤكدة و كل ما لدينا مأخوذ من نتائج حفريات ويسـتند على مسـلمة هشـة مفادها ان المعالم والاثاث والطقوس الجنائزية تعكس الحقائق ، وفي الاخير بالرغم من هذه التحديدات المتضـــاربة الآراء الى ان هذه الفترة تبقى مبهمة و غير محددة منهجيا و حضاريا .

يعرفه طارق عبد العزيز ساحد فجر التاريخ بأنه مرحلة انتقالية برزت فيها ظواهر ثقافية وحضارية مختلفة ومتنوعة تتمثل في تنظيم نمط عيش بسـيط، حيث اسـتخدمت فيه أدوات جديدة مثل الفخار المملس والأدوات المعدنية، كما عرفت الفن الصـــخري والزراعة والمســـكن، وظهور عادات جنائزية جديدة لم تكن معروفة من قبل اختارت هذه الشـــعوب عادات وممارســـات جنائزية لتحضـــير قبور مختلفة ومتنوعة وطرق دفن موتاهم، وارتبطت هذه المعالم بالدفن الفردي أو المدفن الجماعي اللذين يمكن اعتبارهما نشـــاطا لاعتقادات تعبدية وعلاقة وجود بين الأحياء والأموات، والتي يمكن من خلالها كشف الممارسات والطقوس الجنائزية، وما لاشك فيه أن شمال افريقيا عرفت فجر التاريخ كمرحلة موالية للعصر

الحجري الحديث وسـابقة ومعاصـرة للوجود البوني، في حين تبقى نهايته مبهمة لعدة أسـباب خاصـة النقص الفادح للأبحاث الميدانية الذي يشكل عائقا كبيرا في تعريف فجر التاريخ.

تاريخ الأبحاث في مجال فجر التاريخ

كانت أولى اللّمحات حول المعالم الجنائزية من نوع المصاطب تعود للقرن الثامن عشر و كان هذا الاكتشاف من قبل قنصل بريطانيا شاو Shaw وشابيلان Chapelain، عندما وصف لنا مصاطب بني مسوس، ثم يليه الطبيب "Guiyon J.L" الذي كان يرافق الجيش الفرنسي في حملاته، بالإضافة إلى العسكري Rozet الذي اهتم بالمعالم الجنائزية

أما في الشرق الجزائري ومع سقوط مدينة قسنطينة، بدأت أولى الاكتشافات الأثرية مع دورو ثم دولامال Dureau de la malle وبيربروجر Berbrugger، دولامار Delamare، فيرود Féraud، بدو بايسون De Boysson ، ليتورنو Letourneux ، بايين payen عندما كانوا يرافقون الفرق العسكرية كما حدثت في مصر، فأخذوا في جمع العديد من الملاحظات والرسومات.

ومن بين أشهر الباحثين في هذا الميدان الذين كانوا يدافعون عن فكرة إنشاء هذه المعالم من طرف سكان شمال أوربا، كل من المترجم العسكري فيرود Feraud الذي بدأ في الأبحاث الأثرية منذ سنة 1860 والذي أصبح من بعدها رئيسا للجمعية التاريخية الجزائرية 1876- 1860 م فقد قام بحفرية أثرية سنة 1863 على مصاطب راس عين بومرزوق رفقة عالم العظام الانجليزي Christy وقد نسب هذه المعالم إلى الحضارة الغالية-الرومانية التي يقول أنها انتشرت في شمال افريقيا، غير ان ذلك ليس له مدلول علمي، وتطرق ليتورنو لمسألة هذه المعالم الجنائزية ونسبها للأصل البربري، الإضافة إلى فريق آخر أشتهر أيضا بالحفريات والدراسات المتعلقة بالمعالم الجنائزية الخاصة بالشرق الجزائري أمثال Vel Galles ،Reboud، Berbrugger ،Martin،Bertrand ،Logeart Bourjot ، Chabassiere، Boysson في كل من مقابر الركنية، رأس العين بومرزوق، قاسطل، بونوارة، سيقوس، بوشن، سيلا وتيركابين. ونسبها إلى سكان بروطون وغاليين.

- رأس العين بومرزوق: حيث أجرى التنقيبات به كل من فيرود، كريستي christy سنة 1863، ثم شابسيير Chabassiere مابين 1887-1886 ومن بعده بلاري.

- جبل المراح: كشف السيناتور مارتين Martin على 9 مصاطب وبازينا واحدة، ثم قام فروبينيوس Frobenius بالبحث في نفس الموقع.
- الركنية: لقت تمت الحفريات الأولى على يد بيربروجر سنة 1864 ولوتورنو وشميت Schmit سنة 1865 غير أن أهم الحفريات تلك التي قام بها بورقينا Bourguignat[1] وفيدراب سنة 1867 وكذا حفرية السيدة Alquier سنة 1932، وبلوخ Bloch وغابريال كامبس.
- مقبرة سيلا: قام فال Vel سنوات 1904-1905 باستطلاع للموقع من طرف Mennetrier سنة 1910، وVicrey سنة 1943، وفي سنة 1914 تولى الألماني بروبينيوس التنقيب، ليختم Logeart على عدة سراديب.
- مقبرة ذراع بوتومي: قام بزيارته شباسيير سنة 1889م ثم تولى دراسته كل من فال Vel سنة 1989[2].
- مقبرة سيقوس: أول من زارها دولامار سنة 1850، ثم شاربونو وريبود سنة 1863، ثم Maumené سنة 1915، وبعدها نفذ توماس Thomas بالتنقيب سنة 1877، ثم قام شابسيير سنة 1886.
- مقبرة بووشن: أجريت الزيارة الأولى من قبل موميني سنة 1901، وفال سنة 1905، وVicrey سنة 1930[3].
- بونوارة: تولى البحث فيه كل من Delamare , Mac Iver, Frobenius, Weissen Szumslanska، وفي سنة 1865 قام فيدريبFaidherbe بالتنقيب، ثم بالاري سنة 1909، وفي سنة 1913 قام Debruge وJoleaud بالتنقيب أيضا، ثم في سنة 1953 قام كامبس وزوجته بتنظيم حفرية في الموقع[4].

[1] Bourgignat (Gr), Histoire des monuments mégalithiques de Roknia près de Hammam Maskhoutine ; Paris, 1870, pp 38-52.

[2] Vel A., Monuments et inscriptions Libyques relevées dans les ruines de Tir-kabbine. RSAC., 1905.

[3] مراد زرارقة، المعالم الجنائزية والهيئات السكنية لحوض بومرزوق، أطروحة دكتوراه في الآثار القديمة، جامعة الجزائر، معهد الآثار، 2012-2013، ص ص 45-55.

[4] Camps G. & Camps-Fabrer H., La nécropole mégalithique du djebel Mazela à Bounouara. Mémoire du C.R.A.P.E., Paris, A.M.G. 1964.

- بوعطاف بقالمة: يعد فينرال .Vigneral Ch من الأوائل الذين زاروا الموقع، ويذكر روبو Reboud أن كارطوارد Cartoirde قام بحفريات واكتشف عظام وجماجم سنة 1878[5]، ثم كان الموقع محل زيارة من قبل قزال وموجال[6].

بالإضافة إلى الدراسات والأبحاث الميدانية التي ذكرناها سابقا، فقد شهدت منطقة الأوراس عدة عمليات تحري وتنقيب من قبل دولامار، Carbucci، Payen، .Jullien L، .Rinn L، Vercoutre، Vaissière وغيرهم، دون أن ننسى دور ضباط الطبوغرافية أمثال ماسكوراي Masqueray E.

وفي بداية القرن العشرين برز ستيفان قزال بشكل لافت، حيث ألف كتاب بعنوان "تاريخ شمال افريقيا القديم" وجمع فيه حوصلة ابحاثه وتنقيباته حول المعالم الجنائزية مبرزا توزيعها الجغرافي، وما بين 1910-1950 أجريت تنقيبات أثرية في الدولمان والبازينات والجثي قام بها عديد الباحثين أمثال Reygasse M., Debrugge A., roffo P., Dr. Marchand، حيث ركز ريغاس على المعالم الجنائزية في الصحراء[7]، في حين ركز فروبينيوس سنة 1916 على منطقة الأوراس وبالضبط حول المعالم الجنائزية لمنطقة إيشوكان، فضلا عن عدة أبحاث في كل من بني مسوس، بونوارة، سطيف، قسنطينة، بوسعادة، الهامل وفرندة، معسكر وبني صاف[8].

أما الدراسات الحديثة فنذكر منها أبحاث الباحث الجزائري طارق ساحد في منطقتي نقاوس وسفيان بالأوراس[9]، ودراسة ميدانية بنواحي عين بوسيف خلال سنوات 1991-1992[10]، وما بين 2001-2007 أجريت دراسات ميدانية في كل من جبال بوعريف، الأوراس، البوص وجبل أحمر خدو، وخلال سنوات 2005، 2007، 2008 أجريت عديد الزيارات لمواقع غير معروفة بجبل الميلق، الحويطة، وادي مزي بالأغواط[11]، فضلا عن أعمال مصطفى الرميلي حول المعالم الجنائزية لفجر التاريخ بمنطقة أشير، جبال التيطري سنة 2002

[5] Reboud, Excursion dans la Maouna et ses contreforts, R.S.A.C., 1884, pp 27-28.
[6] Abbé Mougel, 4km de promenades archéologiques sur la vie droite de l'oued Mela, B.A.H., T., XIL, 1881, pp 45-50.
[7] Reygasse (M), Les monuments funéraires préislamiques de l'Afrique du Nord, A.M.G., paris, 1950.
[8] Camps (G), Aux origines de la Berbèrie, Monuments et rites funéraire protohistorique, Edi. A.M.G. paris, 1961.
[9] عزيز طارق ساحد، المعالم الجنائزية لمنطقة نقاوس ومقبرة سفيان، الحضنة الشرقية، مذكرة ماجستير في علم آثار ما قبل التاريخ، معهد الاثار، جامعة الجزائر 2، 1998.
[10] مصطفى الرميلي، المعالم الجنائزية "فجر التاريخ" بمنطقة آشير جبال التيطري، مذكرة ماجستير في علم آثار ما قبل التاريخ، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2002.
[11] عزيز طارق ساحد، آثار فجر التاريخ في الجزائر، دار المعرفة، الجوائر، 2011، ص ص 26-27.

ملامح فجر التاريخ في شمال افريقيا

تعد الشواهد المعدنية نادرة في بلاد المغرب ، وتمثل احدى الإشكاليات الصعبة، ولكن الثابت أثريا أنه وجدت أدوات معدنية في الجزائر استعملت في الحياة اليومية، خاصة الأدوات المصنوعة من البرونز لوفرة هذه المادة في زمن إقامة المعالم الجنائزية، لقد أحصي ما لا يقل عن 30 أداة اكتشفت من طرف المختصين خلال ابحاثهم التي دامت قرن ونصف، مقارنة بالأدوات المكتشفة في أوربا والتي قدرت بالآلاف.

والسبب في ذلك هو قلة الأبحاث وافتقار المعطيات العلمية من جهة، وندرة مناجم النحاس في بلاد المغرب، رغم غنى المنطقة به حسب ما كشفته الدراسات، حيث يذكر قزال أن البرونز والنحاس لم يكن لهما أهمية كبرى لدى السكان الأصليين، بل كانوا يجهلون هذه المعدنين، وأنهم عرفوهما من شعوب البحر المتوسط، وينسب ذلك فعليا إلى التجار الفينيقيين في الألفية الثانية، واتفق آخرون أمثال بالو، فوفري، أليمان